ابن تنباك يتناول الأبعاد الثلاثة للثقافة في محاضرة الفصحى والشعبية.. ويتساءل

هل الثقافة الشعبية شيء مختلف عن الثقافة العربية الفصحى ؟

من يقرون ثقافتين لأمة واحدة طيبون مخدوعون

العولمة استلاب جديد لثقافات الأمم غير العربية

جريدة المسائية العدد (٤٧٨١) ١/ ٨/ ١٤١٨هـ

يسر «المسائية» أن تورد النص الكامل للمحاضرة القيمة التي ألقاها مساء أمس الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك بعنوان () مفهوم الثقافة.. الفصحى والشعبية» وقد أثارت المحاضرة الكثير من المداخلات والحوارات وكانت شيقة ومثيرة.. وقد اقيمت المحاضرة بالمركز الرئيسي للجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بالرياض. وفيما يلي نص المحاضرة :

ما هي الثقافة؟ هذا أول سؤال يصلح البدء به عما نحن بصدده من تعريف للثقافة، حدودها وماهيتها؟ وهل الثقافة عموم أو خصوص؟ إطلاق أو تقييد؟ كل أو تجزئة.

يقوم معجم اللغة : « ثقف الشيء حذقه، ورجل ثقف حاذق فهم، والثقف سريع التعلم والإدراك. ويقوم الشاعر في وصف القدرة على مداخل الأمور :

حور بعثن رسولاً في ملاطفة ثقفا إذا أسقط النساءة الوهم

والثقافة ما يقوم به معوج الرماح، والتثقيف التسوية والإصلاح.

www.mtenback.com

هذا ملخص تعريف معاجم اللغة العربية للثقافة في أصل وضعها. أما اللغات الغربية فتأخذ للثقافة أصلاً لا تينياً وهو (Culture) ومعناها إصلاح الارض وتهيئتها للزراعة وبذر الحبوب وإنتاج الصالح منها، وخدمتها لتجود بما هو خير للإنسانية، وقد مرت هذه الكلمة اللاتينية بتحولات كثيرة بين اللغات الغربية حتى انتهت إلى المصطلح المعاصر.

وإذا تجاوزنا التعريف المعجمي للثقافة وانتقلنا إليها بمفهومها الشايع المتبادر إلى الأذهان وجدناه « من أكثر المفاهيم تداولاً ولكنها أيضاً من أكثرها غموضاً وتلونا. فالتعاريف التي اقترحت في المائة سنة الأخيرة بلغت حداً من التنوع يصعب معه الاتفاق على تعريف »[1]. وقد تأتي الحضارة والثقافة في وضع المترادف في بعض الأحيان والاستعلامات، فيعرفها بعضهم بأنها « المجموعة المعقدة التي تشمل المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد، وكل القابليات والتطبيقات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع ما »[2].

وهي تتصف بأنها « مجموعة عناصر الحياة واشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات، وهي وثيقة الصلة بالحضارة التي هي حياة المجتمع

(١) سيولوجيا الثقافة، ص٦.

(٢) سيولوجيا الثقافة، ص١٠

www.mtenback.com

متمثلة في نظمه ومؤسساته، وفي مكاسبه وإنجازاته وفي القيم والمعاني التي تنطوي عليها حياته» [١]. وهي بهذا التعريف تبدو واسعة الدلالة مجملة المعاني تعطي تصوراً يدخل فيه كثير من النشاط البشري بل كان النشاط البشري والمادي وغير المادي، يدخل ضمن أطر الثقافة فيشكل « ملامح مميزة مادية وفكرية وروحية، تميز مجتمعنا أو مجموعة اجتماعية، تسمح لأي متحدث بأن يتعرف ذاته، ويتعرف عليه غيره، وما يحدد الثقافة هنا خصوصية القيم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية وليس مدى تطورها وفعالياتها» [٢].

والثقافة تعطي المجتمعِ أبعاده الحركية الثلاثة، الأساسية وهي البعد الاقتصادي، والبعد السياسي، والبعد الثقافي. وتختلف درجة المعرفة العلمية لهذه الأبعاد، فمعرفة البعد الاقتصادي أكثر تقدماً بلا ريب.. أما البعد الثقافي فهو البعد الأقل تقدماً عن المعرفة العلمية له» [٣] وإذا كان البعدان الأول والثاني هما من أشد الأحوال صرامة ووضوحاً في الحياة العامة وفي الإدراك لحدودهما وأثرهما في حياة المجتمع الإنساني فإن البعد الثالث هو ما يكون سلوك المجتمع الظاهر غير المحدود ويشير إلى نمط الحياة ومفاهيمها في كل

(١) فكر وعمل، ص١١١ .

(٢) الوعي الذاتي، ص٩٠ .

(٣) نحو نظرية للثقافة، ص٥ ، ٧ .

www.mtenback.com

أبعاده وعلائقه الذي يحدد مساره في الحياة وأغراضه فيها كما يدل على توجهاته فينطبع كل ذلك على صلته في بيئته العامة شاعراً أم لم يشعر.

وفي النهاية فإن الثقافة هي ما يصنعه الإنسان في البيئة أو إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يصنع الثقافة. وعلى هذا الأساس أخذت الثقافة بعدا معرفيا يصف المثقف بعد اكتمال آلته الثقافية ويصف الثقافة في مراحلها الأخيرة ونتائجها المؤثرة في أحوالها ومتطلباتها وما تحتاج إليه طبيعتها. فالمثقف في نهاية المطاف يوصف بأنه « ثابت المعرفة بما يحتاج إليه»[1]، وهي ما يبقى بعد أن ينسى كل شيء[2]. وقد لخص أحد الباحثين كل ما تقدم من تعريف للثقافة في نقاط محددة فقال : « إنها تفتح في العقل، ووعي في القلب، وإرهاف في الشعور، واستقامة في السلوك، وحذق في الاشياء علما وعملا». وقد صارت الثقافة تعبيرا عن التكوين الفكري عموما وعن التقدم المعرفي للشخص خاصة وعما يتطلبه ذلك من عمل وما ينتج عنه في تطبيقات، ثم تطورت فأصبحت الإنسانية بصفة عامة[3].

من هذا التعريف للثقافة ماهيتها، سننتقل إلى موضوعنا، وما تردده السنتنا عن الثقافة الشعبية والفصحى الذي بدأ يأخذ محورا شكلياً وبدأ يأخذ بعدا

(١) الثقافة ومآسي وجالها، ص١٣ .

(٢) الثقافة ومآسي وجالها، ص٢٢ .

(٣) سيسولوجيا الثقافة، ص٦ .

www.mtenback.com

اجتماعيا وفكرياً يحددان الدلالة الخاصة لهذين الفهمين حتى ظهر وكأن الأمر يسلك بنا طريقين متوازيين لا يلتقيان. فنحن نتحدث عن الثقافة الشعبية ونتحدث عن الثقافة العربية أو الثقافة الفصحى بفهم ثنائي في أذهاننا خاص بنا وقد بدأ وسائل التثقيف العامة تكرس مفهوم الثقافة الضد وتدفعه إلى منطقة الوعي الذاتي لأجيال الأمة بعيداً عن حقيقته وعن صلته بالثقافة الأخرى عندما نتحدث عن الثقافة الفصحى أو الشعبية، وكأننا نجعل لهذه حيزا ولتلك آخر، نتحدث عن الثقافة ضد الثقافة ونكون بهذه الضدية وعيا ثقافيا مزدوجا غير آخذين بحسباننا طبيعة الثقافة وشمولها للنشاط الإنساني كله. أن ما نردده في مجالسنا وثقافة عربية فصحى أمر يثير السؤال التالي، هل نستطيع أن نحكم أو نفهم أن الثقافة الشعبية شيء مختلف عن الثقافة العربية الفصحى.

الجواب : ما يظهر من أدبيات طرحنا المحلي الحاضر يدل على أننا نفهم أنهما شيئان متضادان ومختلفان. والدليل على هذا الفهم أن لدينا فئة تحسب نفسها على الثقافة الشعبية، تنتصر لها وتنطوي في ظلها وتدافع عنها وتلتزم بأسس هذه الثقافة وأدبياتها، فيولد لديها هذا الالتزام موقفا ضديا من الثقافة الأخرى، حين تحاول أن تميز الثقافة الشعبية عن الثقافة العربية الفصحى وتقيم المقارنة بين ثقافتين وأدبين وفكرين وتبين اختلاف الوجهين، وتحشد لأرائها ومنطلقاتها الجدلية أكثر الحجج قوة وأكثرها أثرا وأعلاها إقناعا، زاعمة أن

www.mtenback.com

الشعبية أهم وأقوى وأقدر واقرب، وأن الثقافة الفصحى فيها عكس ذلك من الصفات والمثالب.

وهذا الموقف الملتزم استوجب الرد بالمثل فقامت فئة أخرى مقابلة تصف الأدب الشعبي والثقافة الشعبية بأنها سقوط وانحدار بالذوق والفكر، وأنه انحراف عن الثقافة الفصحى غير مقبول، وأنه ضار غير نافعت مؤثر في التكوين الذهني مثبط للهمم والعزائم لسهولته وقدرة العامية والخاصة عليه، فهو في رأيها مبتذل مباح لمن يعرفه ويحسنه ولمن لا يعرفه ولا يحسنه، وقد بلغ من الإسفاف أشده ومن القول أرذله وأقبحه.

هذا وصف الحال لما هو موجود في الساحة الثقافية وأظنكم تتفقون معي بأنه النمط الذي نردده ونراه في كل وسائل الإعلام، المكتوبة والمرئية والمسموعة، ،لا أظن أحداً يخالفني هذا الراي أو يزعم غير ما زعمت. فأين الحقيقة؟ وفي أي جانب تكون أو يكون أكثرها قربًا إلى واقعنا الثقافي؟

إن الثقافة العامة للأمة الواحدة لا يتحقق فيها الازدواج ولا الثنائية التي قد توجد في غير الثقافة. الثقافة العامة هي أحاسيس الناس وافكارهم وخطرات نفوسهم وهي تكامل واتصال واحتواء للنشاط البشري كله، وهي لا تقبل الضدية ولا تقبل التحيز إلى شكل منها دون غيره ولا الانتماء الجزئي. الثقافة العامة للأمة أمثلها بالدوحة الظليلة والشجرة الوارفة التي تنشر أغصانها وتتهدل

www.mtenback.com

حول صلبها وقد يكون منها أحراش ونباتات ضعيفة تعيش بجانبها وتتسع باتساع الشجرة وتقوى بقوتها، وكلما كانت الشجرة قوية سامقة جذبت إلى قوتها وسموه الأغصان والأحراش القادرة على السمو والحياة فضمتها إليها وجعلتها منها وتجاوزت الضعيف من الأحراش والنباتات التي لا تقوى على الحياة.

الثقافة هي هذه الشجرة بأصلها وما يتعلق بها وما يحيطها وما ينعشها حتى لو كان شيئًا غير محسوس وطبيعة الثقافة أنها نمو صاعد ورقي مستمر وتغير دائم تصهر ما حولها وتشكله بشكلها، فيكس الضعيف منها قوة والقصير طولاً والهابط علواً والنازل ارتقاء. وهي لا تقبل الثنائية ولا التجزئة. وإذا كانت وسائل التثقيف العامة قد بدأت تفرض على وعينا الجمعي اختلافًا ضديًا في محصلة الثقافة الشاملة، فسمت بعضها شعبيًا، وبعضها الآخر فصيحًا، وركزت على هذه التسمية والتفرقة ووسعت دائرة التقسيم فأنها تفعل خطأ وتجهل ماهية الثقافة الواحدة الموحدة لِلأمة وتجهل طبيعة النمو والوعي الثقافي والتغير، والتدرج الطبيعي الذي ينتهي بالناتج الفكري إلى خلاصة الثقافة العامة وضروراتها حيث تبدأ الثقافة في أدنى مراحلها المعرفية اليومية بالمشترك الذي يدركه كل الأسوياء من الاس بحظوظ متفاوتة كتفاوت الناس في المدرك العادي ثم تبدأ بالصعود والتدرج إلى أن تصل بالمثقف إلى الوعي الصحيح

www.mtenback.com

التام لقضايا الأمة والحياة عامة وهموم المجتمع الذي يعيش فيه المثقف حتى يستجيب بشعوره ووعيه لثقافة نموذجية موجهة مؤثرة تدفعه إلى مشاركة فاعلة في خلق الثقافة ذات البعد الرأسي وتبرز جهده فيها وتميزه فيما يضيف إليها. وإذا نظرنا إلى الثقافة على أنها كلية تقوم على تكامل يجعل من الفعاليات البشرية آلية مناسبة لأغراض الأمة ولأهدافها، عندئذ يصبح من العبث ومن غير الجائز تفتيت الثقافة وتقزيمها وتوزيع تخصصاتها وأغراضها وتعدد مسمياتها لكي تصب ضيقة مخلخلة البنيان غير قادرة على احتواء وعي الأمة ونشاطها الذهني.

إن الثقافة تبدأ بقاعدة عريضة من الموروث العام الشامل وتختار منه ما يصلح للنمو وترتقي بما اختارت إلى القمة، وطبيعة الحياة أن تسمو وترتقي، وطبيعة الثقافة كطبيعة الحياة وبين قمة الثقافة وقاعدتها تقع الإشكالية التي نتحدث عنها. أي الشعبية والفصحى فالثقافة التي نطلق عليها الشعبية قاعدة عريضة والثقافة الفصحى قمة شامخة والذين يحاولون فصل القيمة عن القاعدة يخطئون كخطأ الذين يسمون هذه شعبية وهذه فصحى. إنها ثقافة عربية واحدة وكم من أديب بدأ بما يسمى الثقافة الشعبية فسما بنفسه وسمت به ثقافته إلى القمة فأصبح علماً من أعلام الثقافة العربية الاصيلة، وسبب رقيه ونجاحه أنه عد فرعي الثقافة شيئاً واحداً وصار الترقي بسلمها هدفه وديدنه حتى أوصله

www.mtenback.com

إلى القيمة دون الشعور بالأختلاف أو التعصب لشيء منها، وسأضرب لكم مثالين اثنين في كلا شطري الثقافة، أحد المثالين الشاعر محمد بن عثيمين شاعر النهضة في وسط جزيرة العرب، هذا الرجل بدأ بالشعر العامي ونظمه وأحسن نظمه وسار فيه مشوار من عمره ليس قصيراً حتى بلغ الخمسين وعند هذه السن وصل ثقافته الشعبية بالفصحى وانطلق لسانه في الشعر الفصيح كما انطلق في العامي، فاتخذ الفصحى لسان شعره، وقد خلده سموه بثقافته وخلد آثاره وشعره. ولو عاش ابن عثيمين في عصر كعصرنا يقسم الثقافة إلى فصحى وعامية وفي مجتمع كمجتمعنا بتعصب بهذه أو لتلك لبقي في محيط عاميته لم يتجاوزها ولم يبرح ميدانها الضيق ولم يشارك قومه وأمته ثقافة عربية خالدة، يقرؤه فيها العرب في كل مكان، فانتقاله من قاعدة الثقافة إلى قمتها جعله يطلع على مساحة أوسع من الوطن ومكانه أرحب من الإقليم فعاش شاعراً عربياً وبقي ذكراً خالداً للأجيال.

أما المثال الثاني فهو الأديب المؤرخ الشاعر محمد بن بليهد، هذا الرجل عاش يجوب مرابع القبائل العربية في الجزيرة نجدها وحجازها وتنبهت ملكة الأدب لديه مبكراً ولم يستطيع في حياته الأولى ومجتمعه الأمي أن يمارس غير الممكن في تلك البيئة ومكع تلك الظروف وهو أدب القاعدة أو الشعبي كما نسميه اليوم فأحسن وأجاده وبارى شعراءه ولكنه لم يقع في مأزق التصنيف

www.mtenback.com

لنفسه أ، التحيز لفنه وقد وجد نفسه قادراً على ممارسة الأدب وإنتاج الثقافة. فلما استقر به الحال وجد القدرة على التدرج بملكته الشعرية وموهبته ممكناً سهل فانتقال التي تصنفها اليوم ونسميها الشعبية هي وسيلته إلى الثقافة الكاملة ثقافة اللغة العربية فصار مسيره طبيعياً من قاعدة الثقافة إلى محطة أخرى على الطريق الصحيح ولم يجد حرجاً بخطوات التطور والتجاوز وارتفع إلى القمة وهو يصعد سلماً واحداً هو سلم الثقافة. وأنا أزعم أن أكثر من يصنف نفسه شاعراً عامياً أو شعبياً في الحاضر ويلتزم هذا التصنيف كان باستطاعته أن يكون شاعراً عربياً فصيحاً وكان بإمكان أن يرتقي في سلم الثقافة إلى الفصحى فيصبح شاعراً ويشار إليه بالبنان في كلا الحالين، وما منعه من تطوير فنه والنهوض بقدراته إلى التصنيف الذي فرضناه على ثقافتنا فجعلناها صنفين وشكلين، صنفاً أسميناه العامة أو الشعبية فخفناه وخشينا الاقتراب منه ولم نحاول حتى مجرد المحاولة أن نجرب السير فيه. فعلنا بثقافتنا الواحدة ما لم يفعله غيرنا فشتتنا الجهود وفرقنا الآراء وخلقنا صراعاً وهمياً لا مبرر له في قضية واحدة لا تقبل التجزئة.

أيها الإِخوة: لقد ظهرت قبل سنوات فئة تصنف الأدب وتقسمه وتحاسب الشعراء والكتاب وتحاكمهم فوفقت منها ومن تصنيفاتها موقفاً تعرفونه على الرغم من أن شعور يتعاطف مع المعلن من أرائهم وافكارهم لكن الحق أحق

www.mtenback.com

أن يتبع. أما الموقف من تصنيف الثقافة الواحدة فهو أشد وأقوى ولا يمكن أن نهادنه أو نسايره أو نجري معه، لأنه موقف يتناول أسس تكوين الهوية الشخصية والنفسية للأمة وتشكلها وهو في نتائجه بغي يراد بنا أن نبين أبعاده ونحاول تصحيح مساره.

أن الثقافة العربية ثقافة واحدة لها مستويات تدرج من القمة إلى القاعدة. وما نفعله في بعض تصرفاتنا هو محاولة لقلب القاعدة المعروفة في البناء الثقافي. فالقاعدة يجب أن تكون قاعدة في مساحتها وامتدادها والقمة يجب أن تسمو وترتفع ولا يمكن وضع القمة والقاعدة في مستوى واحد، أن العالم يواجهنا بثقافة العولمة – ونحن نواجهه بازدواج الثقافة والعولمة كلمة شديدة الإبهام مملوءة غرابة تحمل دلالة خادعة ومعنى غامضاً مثل غموض أهدافها، لكنها ولا شك نصر للثقافة والحضارة الغربية. وكل ثقافة أو حضارة غيرها ستكون مجالاً لطغيان ثقافة العولمة وستكشف الأيام أبعادها على الرغم من أنها لا زالت شديدة الإبهام إلا أننا نعرف قدرة الغرب على استعمال أدبيات اللغة إذا كانوا في الماضي يسمون احتلال الأرض واستبعاد البشر أعمارا وهو اسم جميل لعمل قبيح وكانوا يسمون القهر بالقوة لسكان الارض الأصليين انتدابا وهي لغة غامضة مبهمة مثل ما هو غامض ومبهم معنى العولمة اليوم.

www.mtenback.com

إن العولمة استلاب جديد لثقافات الأمم غير الغربية ومسخ حتى لثقافات الدول الغربية غير الناطق بالإنجليزية التي بدأت تشعر بالخوف على ثقافتها. وهذه فرنسا وهي الأقوى والأقدر بدأت تبحث عن مصدات ودفاعات تحافظ على ثقافتها من الذوبان بثقافة العولمة. اضربها مثلاً واكتفى بها. فقد جمعت أمرها قبل الأيم قلائل وأعلنت اتحادها الفرانكفوني واختارت لهذا الاتحاد رجلا مجربا معروفا مخلصا للثقافة الفرنسية وهو بطرس غالي الأمين العام السابق للأمم المتحدة وأقامت مؤتمرها الذي نصبت فيه غالي في شرق آسيا. يجمع هذا الاتحاد الدول ذات الثقافة الفرنسية أو المتأثرة بالفرانكفونية يسمونها. وفرنسا قطب مشارك في العولمة ولكنها تخشى ألا يكون نصيبها الثقافي منها مثل نصيب الناطقين بالإنجليزية والثقافة الإنجليزية، لأن ثقافة العولمة تقودها أمريكا الناطقة بهذه اللغة وهي التي تتبنى هذه الثقافة وتنشرها وستحطم كل الثقافات الأخرى وتحجم نشاطها.

وأمام هذا الحال بدأ العالم كلها يحصن دفاعه حول ثقافاته المحلية ويتمسك بشخصيته الثقافية، فهل نفعل مثلما يفعل العالم ونتمسك بثقافتنا الموحدة ونحصنها، أو نواجه ثقافة العولمة بثقافتين مزدوجتين فنكون الضحية لينة المضغ سهلة الابتلاع، أننا ندعو كل مخلص لثقافته وميراث قومه وشخصيته العربية إلى نبذ التفريق والتحيز لشكل من الثقافة دون آخر وأدعو كل

www.mtenback.com

مخلص لعروبته وثقافة أمته بالتمسك بحب الثقافة العربية وبحب اللسان العربي والإيمان أننا اصحاب رسالة وأصحاب تاريخ يجب أن نحافظ عليه ونحترمه وندافع عن ثوابته وقيمه الخالدة. وفي الختام دعوني أكون كعادتي مؤذيا لنفسي محبا لكم فأقول : أن من يقرون ثقافتين شعبية وفصحى لأمة واحدة، طيبون مخدعون بالأسماء والأهواء، الثقافة شخصية كاملة وهوية والشخصية لا يمكن تعددها إلا في حالة الانفصام والجنون ولا يمكن أن توضع شخصية الأمة موضع الخيار الذي يقبله أناس ويرفضه آخرون.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com